الأدب العصري

في الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب

للدكتور ر . ب . سارجنت

بقية المنشور في العدد الماضي

حضرموت :

لقد تأثرت الحياة السياسية والثقافية لحضرموت ، في خلال عدة قرون على أقل تقدير ، تأثراً عميقاً بما طبعتها به عدة أسرات شهيرة من السادة نذكر من بينها الأسماء القليلة الآتية : السقاف ، وعيدروس ، وبا فقيه ، وبا علوى . وفي القرن الحادى عشر الهجرى أخرجت أسرة السقاف التى كان مقرها فى ذلك العهد غالباً فى تريم وابلا من الأدب الصوفى ، وطبعاً أخرجت الأسرات الأخرى كذلك مجموعة غير صغيرة من المؤلفات الصوفية . وقد طبع من مؤلفات السقافين عدد ما فى خلال القرن الماضى . ولم يقتصر نفوذ السقافين على كليتهم أو مدرستهم التى كانت فى تريم بل كانت لهم كذلك صلة بضريح عينات المشهور ، الذى تظهر صورته على طوابع البريد الحضرمية ، وكان نفوذهم وعلاقاتهم تمتد فى ذلك الحين — كما تمتد اليوم — إلى أفريقية الشرقية وإلى الهند ولا سيما أحمد آباد ؛ بل ربما كانت لهم علاقات بالجاليات العربية فى جزر الهند الشرقية . ومن المعلوم لنا أن الأسرة كانت مزدهرة منذ عهد يرجع على أقل تقدير إلى القرن التاسع ، ومن عجيب ما يروى أنه كان هناك شخص يسمى حسين بن أبى بكر السقاف أنكر على تدخين التبغ الذى كان يباع فى جزيرة العرب فى سنة ١٠٢٢ هجرية ، وقد نجح فى الحصول على حظر بيعه العلنى فى الأسواق ! واشتهر السقافون بأنهم صوفيون غيورون ، وارتحلوا فى بقاع الأرض برسالتهم الصوفية ، وتقبلوا العباءة الصوفية من أعضاء الجمعيات الصوفية الأخرى .

ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون اليوم للحضرميين حى يقطنون به فى القاهرة ، بناحية الجمالية ، على مقربة من مسجد سيدنا الحسين ، وقد نشر عدد من الكتب الحضرمية أحدها تأليف كاتب سقاف . ويحتوى هذا الكتيب على ست قصائد فى مدح الإمام يحيى ، نظمت فى سنة ١٩١٢ حينما كانت بلاد اليمن تحت الحكم التركى ، ونشرت فى سنة ١٩٢٦ ، وبه أيضاً ردان شعريان من الإمام نفسه ، إذ أن الإمام شاعر معترف بشاعريته . وقد قامت هذه الأسرة المجددة ، فى خلال السنتين أو الثلاث الماضية بنشر مجلة الاعتصام ، وهى صحيفة شهرية تصدر فى مدينة سيون وتعالج الشئون الدينية والثقافية والأدبية ؛ ومن حسن حظى أننى أمتلك نسخة من هذه المجلة ، وهى العدد الثامن الصادر فى صفر سنة ١٣٦٢ هـ ، وهى السنة الأولى فى حياة الصحيفة . ومما يذكر عن هذه المجلة أنها مكتوبة بخط اليد إذ يظهر أنه ليس فى ذلك الجزء من الوادى مطبعة ، ولا بد أن تكون هذه الصحيفة هى المجلة الوحيدة التى تصدر فى البلاد العربية على هذا الشكل .

وصدر فى القاهرة كذلك منذ بضع سنين كتاب آخر هام عن حضرموت اسمه « تاريخ حضرموت السياسى » ، وهو يشتمل على قدر كبير من المعلومات القيمة ، ليس فيما يتعلق بالشعراء العصريين ، والأدب العصرى ، والتاريخ الحديث فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالعلوم التى نهضت فى الغرب كعلم طبقات الأرض وعلم وصف البلدان ، مما له فائدة جليلة على الرغم مما قام به الطيران فى السنوات الأخيرة من رحلات الكشف والاستطلاع

وحضرموت تواجه الشرق كما تواجه الغرب ، ولقد كانت العلاقات بين جنوبى جزيرة العرب والهند قائمة على أساس وطيد قبل الإسلام بزمن طويل . ويقوم اليافعيون اليوم بالخدمة المتوارثة فى الحرس السلطانى الخاص لنظام حيدر آباد ، كما كان اليافعيون والمهريون يخدمون فى الحرس الخاص فى أحمد آباد فى عهد مضى عليه أكثر من أربعة قرون . ولدينا من الرجحان ما يقرب من اليقين إذ نعزو سبب طبع كتب مثل كتاب فتوح اليمن ، فى بمباى وغيرها من البلاد الهندية إلى أنه كان فى الهند جاليات حضرمية ؛ كذلك طبعت كتب أخرى تختص بشئون جنوبى جزيرة العرب ، فى المدينتين الهنديتين الكبيرتين ، كلكتا وكانبور ، غير أنه طبع فى بغداد ، فى عهد أحدث من هذا ،

كتاب مشهور هو « النور السافر ، عن أخبار القرن العاشر » وهو من تأليف أحـد أفراد أسرة العيدروس ، ويتناول أخبار الصوفيين فى جنوبى الجزيرة العربية وكجرات .

وللحضارمة جاليات تقطن منذ عهد بعيد فى جزائر الهنـد الشرقية الهولندية ، ومستعمرات الملايو البريطانية ، وإن كان من المرجح أن نشأة تلك الجاليات لا ترجع فى تاريخها إلى مثل ما ترجع اليه جاليات الحضارمة فى الهند . وللحضارمة مطبوعات نشرت فى بتافيا ، عاصمة الهند الشرقية الهولندية منذ سنة ١٨٧٥ وتتناول هذه المطبوعات فى معظمها العلوم الدينية ، والفقه ، وعلم التوحيد ، وبعضها طبع حجر وبعضها طبع حروف ؛ وبعد ذلك التاريخ بعشرة أعوام طبعت خريطة هـامة لشبه الجزيرة العربية ، وكذلك الأطلس العربى ، للسيد عثمان ، على مطبعة الحجر .

ومعلوماتنا عن الجهود الأدبية للحضارمة خارج وطنهم ، معلومات متناثرة فى جملتها ، وبما أنهم أقليات فى تلك البلاد التى اتخذوها وطناً لهم — مهما تكن تلك الأقليات مهمة — فقـد جر النسيان ذيله على جهودهم الأولى . وليس فيما أعلم فى مكلا نفسها مطبعة ، وإلى أن تنشأ هناك آلة للطباعة لن يكون مفر من أن ينتشر الأدب عن طريق المخطوطات التى تنسخها الأيدى أو عن طريق المطبوعات التى تستورد من البلاد العربية الأخرى. وهذا أدعى إلى الأسف ، إذ أن للبلاد تاريخاً ثقافياً عريقاً تمكن المحافظة عليه وتغذيته بما يعيد اليـه الحياة مرة أخرى ، بإدخال فن الطباعة .

الصحافة والمطابع فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب

أصبحت الجرائد اليوم مصدراً من المصادر التى يعتمد عليها التاريخ ، وإن كان من غير الممكن أن نقول عنها إنهـا فى الغالب دقيقة ، أو نزيهة عن المحاباة ، أو إنها دائماً حسنة الأسلوب ، بل لا نستطيع أن ندعى لها أنها تضع أمامنا صـورة صادقة عما هو حادث فى البلاد فعلا . والحق أن المؤرخ اليقظ لا يترقب أن يجد فى الجرائد تلك الصفات ، وهو إذ يرجع إليها إنما يرجع إليها مع شعوره بتشيعها ، ليوضح طريقة عرضها للحوادث فى ضوء ميولها الحزبية ، فيستنتج من الجرائد المختلفة آراء الأحزاب المختلفة عن شأن من الشئون ، ثم يعتمد على مصادر أخرى أقل تشيعاً ليستقى منها التأويل الحقيق للحوادث . على أن المؤرخ الأدبى أسعد حظاً من زميله المؤرخ العام ، إذ أن الجرائد هى إلى حـد كبير مرآة تنعكس عليها الحركات الأدبية للعصر الذى تصدر فيه ، بل إنها فى بلاد مثل بلاد الجنوب الغربى للجزيرة الغربية تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لنشر الآداب . وقـد شاهدنا جميعاً الدور الهام الذى قامت به الجرائد فى نهضة الأدب العربى فى مصر وسورية ، فمن المهم إذن أن نتدبر أثر الجرائد فى المجهودات الأدبية فى ذلك الركن من شبه الجزيرة العربية .

وفى منتصف القرن التاسع عشر نشر عالم هولندى اسمه فان دن برغ ثبتا بالجرائد العربيـة التى كانت متداولة بين الجاليات العربية فى الهنـد الشرقية ، ولنا أن نفترض أن كل تلك الجرائد كانت متداولة فى المدن التى كان يمكن الوصـول إليها فى الجنوب الغربى للجزيرة العربية ، وكانت هناك جريدة « الجوائب » التى أسست فى إستنبول سـنة ١٨٦٠ وكانت تطبع فيها ، وقد عطل الباب العالى هذه الجريدة ، ولـكنها عادت للصـدور مرة أخرى سـنة ١٨٨٥ باسم جريدة « القاهرة » . كذلك كانت جريدتا « الاعتدال » و « الإنسان » تصدران فى إستنبول وتتداولان فى الهند الشرقية . ومما كان منتشراً فى الهند الشرقية أيضاً الجرائد البيروتية الآتية : « الجنة » و « لسان الحـال » و « ثمرات الفنون » ؛ ومن القاهرة جريدة « الوطن » ؛ ومن الإسكندرية جريدتا « الأهرام » و « روضة الاسكندرية » ؛ ولعل أهم ما كان متداولا من الجرائد هناك ، من الوجهة السياسـية ، هو صحيفة « العروة الوثقى » وهى مجلة دعاة الوطنية من العرب وكانت تصدر فى باريس .

وليس من اليسور الحصول على معلومات فيما يتعلق بإنشـاء المطابع وتأسيس دور الطباعة فى الجنوب الغربى للجزيرة العربية . ذلك إلى أنه يظهر أن معظم المطبوعات الأولى التى أخرجتها تلك المطابع كان ذا صبغة وقتية فاختفى غير مخلف له أثراً يهتدى به على نوعه أو قدره . وما كتب له البقاء من الرسـائل أو الجرائد التى طبعت فى تلك المطابع فى عهدها الأول ، يرجح أنه اليوم مبعثر

بين المكتبات الخاصة والعامة فى تركيا ، والهند ، وصنعاء ، وعدن ، وبريطانيا العظمى ، ولكن القارىء العادى لا يعرف شيئاً عن وجودها . على أن لدينا شيئاً من المعلومات عن تأسيس الجريدة اليمنية « صنعاء » التى كانت تطبع بالعربية والتركية . ففى سنة ١٨٧٠ قررت الحكومة التركية العثمانية أن يكون فى عاصمة كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية مطبعة ، وأن يقوم كبار الموظفين فى الولاية بنشر تقويم أو كتاب سنوى « سالنامه » يشتمل على أهم الأخبار فى الولاية ، وأن تنشر كذلك جريدة فى كل عاصمة . وبناء على هذا القرار أقيمت مطبعة فى القصر الحالى للامام المعروف باسم « مقام الإمام » وطبعت فيها جريدة « صنعاء » . ونسخ هذه الجريدة نادرة الوجود جداً فى الوقت الحاضر ، ومن المرجح أن هذه الجريدة لم تكن منتشرة ، حتى فى ذلك العهد ، إلا فى المدن الكبرى ، إذ أن سلطة الأتراك خارج تلك المدن كانت واهية جداً . ويظهر أن عدداً من الرسائل طبع كذلك فى تلك المطبعة ، ومن المرجح أن معظمه كان متصلا بالشئون الحربية والإدارية ، ولكن واحدة من هذه الرسائل قد وقعت فى يدى وهى تبحث فى الفرائض الدينية . والكتاب الأتراك عن اليمن هم الذين يمكنهم أن يكشفوا عن نشأة هذه المطبعة ، وعلى الخصوص حامد وهبى الذى نشر كتابه السنوى عن اليمن « سالنامه سى » فى سنة ١٢٨٩ هـ . ، وكذلك غيره من المؤلفين الذين كانوا على الأرجح موظفين فى الحكومة وكان لهم اهتمام بالبلاد دعاهم إلى كتابة تاريخها . ولقد كان الأتراك طبعا حكاما لجزء من اليمن فى حقبة قصيرة فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومما يذكر على سبيل التندر أنه مازال باقياً حتى اليوم فى القسطنطينية صور للفتح التركى لليمن من صنع فنانين أتراك من أهل ذلك العهد .

وفى أثناء العهد المضطرب الذى تلا الحرب العظمى الأولى لم يكن فى اليمن على ما يظهر نشاط أدبى كبير ، غير أنه فى سنة ١٣٤٥ هـ . و (١٩٢٦ م .) ظهرت الأعداد الأولى للجريدة اليمنية الجديدة فى صنعاء ، مطبوعة فى المطبعة التركية القديمة ومسماة باسم « الإيمان » . وتشتمل هذه الجريدة الرسمية على نصوص المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية . وعلى المراسيم ، والأحكام القضائية ، والقصائد المنظومة فى مدح الإمام وأمراء البيت المالك ، كما تحتوى على مقالات أدبية ودينية . وبفضل هذه الجريدة يمكن تتبع الموقف السياسى الداخلى للبلاد ، إلى درجة ما ، كما يمكن الوقوف على الجهود الحميدة التى تبذلها الحكومة المركزية فى النهضة بالتعليم ، وتربية روح وطنية عامة — لا روح قبلية محلية — فى جميع أنحاء البلاد . وعلى أنه من غير الممكن أن نقدر مبلغ ما لهذه الجريدة من الانتشار فى داخل بلاد اليمن ، يمكننا أن نسلم بأنها تصل إلى جميع دور الحكومة فى كل قضاء ، وبأنها تتداول بأيدى قراء يزيدون فى عددهم زيادة كبرى على ما كان للجريدة التى كانت تصدر فى العهد التركى ، وتؤدى بذلك خدمة أهم من تلك التى كانت تؤديها تلك الجريدة . ومن الميزات الشائقة فى جريدة « الإيمان » نما تنشره لمراسليها فى سورية وغيرها من البلاد العربية الأخرى .

أما أهل عدن فانهم يتناولون منذ عهد طويل الصحف المصرية التى يكاد يكون الحصول عليها فى عدن فى مثل سهولة الحصول عليها فى القاهرة ، ولا يقتصر قراؤها هنا على العرب فقط ، بل يقرؤها كذلك المتعلمون من الصوماليين . وتنتشر الجرائد كذلك فى لحج عاصمة السلطنة العبدلية ، ولكنها قليلة الانتشار فى الجهات الأخرى من المحمية . ولدينا من المراجع المسطورة ما يدل على أنه فى سنة ١٨٧٠ كان فى عدن مطبعتان : إحداهما فى السجن ، ومن المرجح أنها لم تطبع بجانب المطبوعات الحكومية إلا القليل ، والأخرى خارج السجن ، وليس لدينا ما يدل على أنها كانت تطبع كتباً عربية أو على مقدار ما طبعته منها إن كانت قد طبعت منها شيئاً . وشاهدت سنة ١٩١٤ قيام مطبعة ثالثة . فأصبح هناك ثلاث مطابع تقوم على خدمة عدد من السكان يتراوح بين أربعين ألفاً وخمسين ألفاً ؛ واليوم أستطيع أن أسمى ثلاث مطابع تطبع بالعربية ، منها مطبعة « فتاة الجزيرة » ، ومطبعة « الهلال » فى بازار بهرة ، وربما كان هناك مطابع أخرى ولست أدرى أكان بين مطبوعات المطابع الأولى ما يزيد على حجم الرسائل أو الاعلانات أم لا ، ولكن من غير المحتمل أن تكون تلك المطبوعات قد اشتملت على كتب . ومنذ نشوب الحرب الحاضرة تولى تحرير جريدة « فتاة الجزيرة » صحفى عدنى

اسمه محمد نقمان ، وتنشر هذه الجريدة الأخبار المحلية ، وقصائد شعرية ، ومواد فى التربية والتعليم ، ومقالات عامة ، والأوامر الحكومية . وإذا قارنا هذه الجريدة بجريدة « الايمان » التى تجنح إلى الأسلوب القديم ، ألفيناها ذات أسلوب حديث فى عرض موضوعاتها ، وتستخدم لغة الصحافة الحديثة العربية . وهى منتشرة فى عدن ولحج وإن كنت رأيت بعض نسخ منها فى الأجزاء الأخرى من المحمية ، وربما وجدت أيضاً فى حضرموت حيث مستوى التعليم أعلى نوعا ما .

وقد سبق أن ذكرنا جريدة « الاعتصام » الحضرمية ، ولكنه إذ لا مفر من طبع جميع الكتب الحضرمية فى الخارج ، كذلك الجرائد المطبوعة تأتى من الخارج . فمن ذلك أن الجرائد تستورد من جزائر الهند الشرقية الهولندية ، ومن المرجح أن يكون من بينها جريدة « حضرموت » التى تطبع فى سورابايا ، فى الهند الشرقية الهولندية ، منذ نحو سنة ١٩٢٣ . وكانت تطبع فى سنغافورة جرائد عربية قبل الحرب الماضية ، وعلى أننى لم أر واحدة منها ، أرجح كل الترجيح أنها كانت من تحرير الحضارمة ، وأنه ظلت الجرائد العربية تظهر هناك حتى عهد قريب . ومن الصحف المتداولة فى المدن الساحلية للمحيط الهندى مجلة « العرب » التى تصف نفسها بأنها « جريدة إسلامية ، أخبارية ، أسبوعية ، تصدر من الهند » ؛ وقد بدأت هذه الصحيفة فى الظهور فى سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ ، وهى تحتوى على أخبار ومعلومات عامة عن عدن ، واليمن ، وحضرموت . وهى تطبع فى بمباى ، وتدعى أنها « حلقة الاتصال بين الهند والعالم العربى » ويرد إلى حضرموت مجموعة متنوعة من الصحف بالإضافة إلى الصحف المصرية والعراقية ، غير أن توزيعها مقتصر على المدن ولا سيما المدن التى هى أقرب إلى الساحل .

اللغة العربية فى جنوبى الجزيرة العربية

ونختتم بحثنا هذا بكلمة قصيرة عن الأساليب العربية التى تستعمل فى جنوبى الجزيرة العربية . والأب أنستاس مارى يقول عن جدارة ، معبراً عن وجهة نظر الأمم الآخذة من التقدم بنصيب أوفى ، فيما يتعلق بالأسلوب العربى الذى يستعمله اليمن :

« وأما لغة الإنشاء فصحيحة ، لكن أسلوبها أسلوب العصور الوسطى ، وليس فيها تلك السلاسة والرطوبة واللدونة التى ترى فى أساليب المصريين من أهل مصر ، وسورية ، ولبنان ، والعراق ؛ وكل ما يرمى إليه كتبة اليمانيين السجع الممل . »

ولكنه يحتاط فيقترح الحل الآتى : « على أننا لا نريد بذلك ذم كلام أبناء اليمن ، بل نود أن يطالعوا التصانيف الحديثة التى تصدر كل يوم فى الديار العربية اللسان . »

وفيما يتعلق بلغة التخاطب والمحادثة ، يستخدم أهل المدن لهجة شائعة يفهمها الغريب بسهولة ، أما فى القرى فللناس لهجات كثيراً ما يصعب فهمها على المسافرين الوافدين من جهات أخرى . وبين يدى الآن وثيقة قانون قبلى أو شرع قبيلة كما تسمى فى جنوبى جزيرة العرب ، وهى وثيقة لا يستطيع فهمها مصرى أو سورى ، بل لا يستطيع فهمها حضرمى مثلا . ومع ذلك فهى مكتوبة باللهجة التى تتكلمها هذه القبيلة دائماً ، بل يتكلمها سلطانها . وفى بعض المناطق ما زالت لغة التخاطب قوية الشبه بلغة بنى حمير ، ولن يدهش علماء النحو أن يعلموا أن « ام » ما زالت تستعمل أداة للتعريف بصفة عامة جداً ، كما أخبرنا بذلك منذ قديم كل من الزمخشرى وسيبويه . إن فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب مناطق كثيرة لم تكد الحروف المطبوعة تخترق أصقاعها ، وهذه المناطق تكاد لا تزيد على أن تفهم لغة الجرائد العصرية . على أن ارتجال الشعر فى تلك الجهات ما زال عنصراً من عناصر الحياة الاجتماعية للناس . وليس ثمة شك فى أنه فى خلال نصف قرن يأتى ستتطور منطقة الجنوب الغربى بانتشار التربية وتعلم القراءة والكتابة ، وما سيصحبهما من نشر المعلومات العصرية فى الفنون الهندسية والأساليب الأدبية ، وسيكون من الشائق جداً أن يلاحظ الباحث تطور هؤلاء القوم تحت تأثير هذه العوامل الحديثة . لقد كان للبلاد ماض مجيد فى تاريخ المدنية ، وجدير بها أن يكون لها مستقبل مجيد ، وهى بذلك أجدر بسبب ما تحتويه من الثروة الطبيعية التى ساعدت فى الحجاز على تقدم الشعب العربى .

الدكتور ر . ب . سارجنت